



حَوْلِيَّةُ سِمَنَارِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيطِ - المجلد ١٢ (ديسمبر - ٢٠٢٤)

الأحباش في المجتمع الإسلامي بلاد المغرب "انموذجا"

أ.د/ خالد حسين محمود حسين (*)

ملخص

يتناول هذا البحث الأحباش ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط من حيث روافد استجلابهم، ووضعيتهم الاجتماعية، وموقف المجتمع منهم، ثم دورهم داخل المجتمع من خلال تسربهم إلى المؤسسة العسكرية لما تمتعوا به من قوة بدنية، ونشاطهم الحرفي، ودورهم التجاري عبر مصاحبة قوافل التجارة في مسالك الصحراء، وقد أكدت الدراسة أن حضور الأحباش ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط كان ضعيفا مقارنة بغيرهم من أجناس السودان

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

Abstract

This research deals with the Abyssinians in the Maghreb during the Middle Ages in terms of the sources of their recruitment, their social status, and the society's attitude towards them, Then their role within society through their infiltration into the military establishment due to their physical strength, their craft activity, and their commercial role through accompanying trade caravans in the desert routes. The study confirmed that the presence of the Abyssinians in the Maghreb during the Middle Ages was weak when compared to other Sudanese races.

مدخل:

رغم تعدد أجناس الرقيق وتنوع أعراقهم وتعدد أنشطتهم وأدوارهم في المجتمع الإسلامي خلال العصر الوسيط، فإن الكتاب القدامي لم يولوا أهمية للحديث عنهم، ولم يفرّدوا لأي جنس منهم مؤلفات خاصة^(١). باستثناء الأحباش، الذين خصهم القدامى بمؤلفات عدة، نذكر منها: كتاب "أمر الحبشة" للواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م)، وكتاب "علة في اسوداد الحبش وغيرهم" لقسطا بن لوقا البعلبكي (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٣م)^(٢)، وكتاب "مناقب الحبش" لجعفر بن أحمد السراج البغدادي (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م)^(٣)، وكتاب "تنوير الغبش في فضل السودان والحبش" و"مناقب الحبش" لابن الجوزي ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م^(٤)، وكتاب "نور الغبش في لسان الحبش" لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ/ ١٢٤٤م)^(٥)،

(١) نشير هنا الى كتاب ألفه صقلبي يدعى حبيب حمل عنوان "كتاب الاستظهار و المغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة" أشاد فيه بفضائل أدباء الصقالبة من الأندلس، و درس فيه أشعارهم و رحلاتهم، لكنه في عداد المفقود. المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ج ٣، ص ٨٢.

(٢) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٩٩، ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة - بيروت، ١٩٧٨م.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ج ١٩، ص ٢٢٩.

(٤) الذهبي: مصدر سابق، ج ٢١، ص ٣٦٩.

(٥) الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، علق عليه ووضع حواشيه مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٧٠، السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، ١٩٦٤، ج ١، ص ٢٨٣، العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ، ج ٧، ص ٢٤٣.

وكتابي "أزهار العروش في اخبار الحبوش" ^(١)، و "رفع شان الحبشان" للسيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٦م) ^(٢)، وكتاب "الطراز المنقوش في محاسن الحبوش" لمحمد بن عبد الباقي (الفه عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) ^(٣)، وكتاب "رونق الحسان في فضائل الحبشان" للزمزمي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) ^(٤)، وكتاب "الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان" للقنائي (كان حيا قبل ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) ^(٥).

لكن المطلع على تلك الكتابات لا يكاد يظفر بشيء يتعلق بدور تاريخي حقيقي لهؤلاء الأعباش في العالم الإسلامي؛ حيث غلب عليها الطابع العمومي، فتكاد تتفق وربما تتطابق محتوياتها لتنصب حول الحديث عن موطن الأعباش، وأصولهم، وصفاتهم الجسمانية، ولغتهم، ومحاسنهم الأخلاقية، والترغيب في اقتنائهم والتسري بجوارهم، والتأكيد على فضائلهم ومناقب أعلامهم، استناداً إلى نصوص دينية ومأثورات، دون أن ترصد حضوراً حقيقياً للأعباش، أو تكشف عن دورهم وأنشطتهم داخل المجتمع الإسلامي.

وهو ما يفسر غياب للأعباش في الدراسات التاريخية المتعلقة بحقل التاريخ الإسلامي؛ بحيث لا يعثر الباحث على دراسة منفردة تتعلق بهم وبأحوالهم وأدوارهم داخل المجتمع الإسلامي، إذا ما استثنينا دراستين يتيمنتان تتعلقان

(١) تحقيق: عبد الله محمد عيسى الغزالي، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ١٩٩٥ م.

(٢) تحقيق: صفوان داوودي وحسن عبيجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٦ هـ.

(٣) نشره ضمن أعمال ندوة الرق في تاريخ المغرب، كلية الآداب بالقيطيرة، ٢٠١٠م، ص ٧٧-١٢٨.

(٤) تحقيق: عبد الله محمد عيسى الغزالي، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ١٩٩٥ م.

(٥) طبعة المطبعة الكبرى ببولاق، القاهرة، ١٣٢٣هـ.

باليمن ومصر؛ نظراً لكثرة الأحباش فيهما؛ لقربهما من بلاد الحبشة، وتواصلهما معها تجارياً وحضارياً^(١). الأولى للباحث عصام لاشين تحت عنوان: "العبيد الاحباش ودورهم في الحياة العلمية في بلاد اليمن ق٣-ق٧"^(٢)، والثانية للباحث برهان درويش بعنوان "أثر الأحباش الحضاري في مصر ٦٤٨-٩١١ م"^(٣).

لكن غياب الدور التاريخي للأحباش داخل المصادر المذكورة لا يعني أنهم لم يكن لهم حضور داخل دار الاسلام خلال العصر الوسيط، حيث تند عند الحصر الإشارات الواردة في مصادر أخرى لتؤكد انتشارهم في عموم العالم الإسلامي، فكان لهم حضور بالحجاز^(٤)، والعراق^(٥)، والإحساء^(١)، والشام^(٢)، واليمن^(٣)،

(١) انظر بهذا الخصوص دراسة محمد أحمد بهنساوي: "التجارة الخارجية في الحبشة في عصر الأسرة السليمانية ٦٦٩-٩٤٨هـ/ ١٢٧٠-١٥٤٣م"، حولية سيمينار التاريخ الإسلامي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ع٤، ٢٠١٤، ص ٣٢١-٣٥٠.

(٢) بحث منشور في مجلة كلية الاداب جامعة المنوفية، مج ٢١، عدد ٨١، ابريل ٢٠١٠، ص ١١١-١٢٣.

(٣) بحث منشور في مجلة الجامعة العراقية، ع٤٢، ج١، ص ١١١-١٢٣.

(٤) الثعالبي: الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، تحقيق إلهام المفتي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠، ص ١٣٥، ١٦٩. ابن المجاور: تاريخ المستبصر، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، تحقيق: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٩٩٦م، ص ١٥. والذي ذكر أن السمرة انتشرت في عرب مكة لأن "جلة مناكحهم الجوار السود من الحبش والنوبة"، ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٩٦٩م، ج١، ص ٢٠٩، ٢٨٧.

(٥) الهمداني: الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تحقيق: حمد بن محمد الجاسر، دار البيامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤١٥ هـ، ص ٣٠٦، ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص ٢٠١، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، ١٩٩٧ م، ص ١٤٠، ابن أبيك الداوداري: كنز الدرر وجامع الغرر،

ومصر^(٤)، والمغرب^(٥)، والأندلس^(٦). سواء داخل البلاطات السياسية أو بين الأوساط الشعبية. وكان حضورهم الفاعل واحتكاكهم بمختلف الشرائح الاجتماعية وراء إجادة عدد من سكان هذه المناطق للغة الأحباش^(٧).

ج٦، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الحلبي، ١٩٦١ م، ص ٥٢٠.، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ج٤، ص ١٤٨٤، ١٦٤٨.

(١) ناصر خسرو: مصدر سابق، ص ١٤٣.

(٢) النعمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ١٩٩٠ م، ج٢، ص ٨٢، ١١٨، ١٥٢.

(٣) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨ م، ج٤، ص ٢٧٣.

(٤) ابن يونس المصري: تاريخه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١ هـ، ج١، ص ٢٥٤، ٣٩٩، الذهبي: مصدر سابق، ج٨، ص ٣٠٤، ج٣٨، ص ٣٤٧، ج٤٠، ص ٢٠٨، الأصفهاني: لبستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ٢٦٩، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ت، ج٥، ص ٢٦٦.

(٥) مجهول: المعزى في مناقب ابي يعزى، مخطوط بعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٢٠٤١ تاريخ، ورقة ١٠٣. ابن أليك الداوداري: مصدر سابق، ص ٢٦٧.

(٦) الطرطوشي: سراج الملوك، من أوائل المطبوعات العربية، مصر، ١٨٧٢ م، ص ١٦٧، ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت،

١٩٩٥ م، ج١، ص ١٢٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٢٨١، ٢٩٠.

(٧) ابن الشعار الموصل: فلائد الجمان في شعراء هذا الزمان، تحقيق كمال الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ج٥، ص ٢٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص ٨٧، الموصل: مصدر سابق، ج٥، ص ٢٦. ياقوت الحموي: معجم الادباء، ج٥، ص ٢٢٦٣، ج٧، ص ٢٩٠٧، الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣ م، ج٣٦، ص ٤٣٠، ج٣٧، ص ٢١٢، الصفدي: نكت الهميان، ص ٢٢٠، العمري: مصدر سابق، ج٤، ص ٦٦.

نظرة المجتمع الإسلامي للأحباش.

تباينت نظرة المجتمع الإسلامي للأحباش بين التقدير والازدراء؛ فثمة نظرة ايجابية رسخ حضورها ما حظيت به الحبشة وأهلها من مكانة كبرى عند المسلمين؛ للدور المشهود في حماية الرعيل الأول من المؤمنين، وما قدمه بعض الأحباش من توضيحات في سبيل الله والتشبث بالإسلام، فيما عرف بـ "مفاخر... الحبش" ^(١)، فضلاً عن أن "فِيهِمْ كَثْرَةٌ وشهرة" ^(٢)؛ حيث برز منهم أنبياء وحكماء وصحابة وتابعون ومحدثون وزهاد وعباد ونسك وصلحاء وعلماء ^(٣).

وهي النظرة التي دفعت نحو الحث على إكرام "كل حبشي" ^(٤)، فالحبشي إن كثرت عيوبه إلا أن له "مهابة وجلالا" ^(٥). وشاع عن الأحباش أنهم جنس "مبارك

(١) الجاحظ: الرسائل السياسية، دار هلال، بيروت، د.ت، ص ٥٣٦. وقد أورد الجاحظ أبياتاً شعرية للشاعر عكيم الحبشي وهو يتفاخر ببني جلدته ومن انتسب إليهم من الأعلام مثل النجاشي وغيره.

(٢) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، صحتها ووقف على طبعها: إبراهيم اليازجي، مطبعة أمين هندية، القاهرة، ١٩٠٧ م، ص ٢٠٣.

(٣) ابن الجوزي: تنوير الغيش في فضل السودان والحبش، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الشريف، الرياض، ١٩٩٨، ص ٨٣، ٩٨، ١٤٥، ١٥٣، ٢٠٣، ٢٣٢، ابن منظور الافريقي: مختصر تاريخ دمشق، تحقيق روية النحاس وآخرين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ١٩٨٤ م، ج ٥، ص ٢٦١، الحكري: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق عبد الرحمن عادل واسامة إبراهيم، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠١، ج ٨، ص ٣٦١، ج ١١، ص ٣٥٧، الهجراني: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار المنهاج، جدة، ٢٠٠٨، ج ١، ص ٤٣٨، ج ٢، ص ٥٩، ج ٥، ص ٣٤٢، ج ٦، ص ٢٠١، ٢٤٦.

(٤) المقرئ: مصدر سابق، ج ٥، ص ١٨٥.

(٥) أبو العلاء المعري: مصدر سابق، ص ٢٠٣.

ميمون يصحبه السعد والبركة في الحركات والسكون" ^(١)، وقيل "من أدخل بيته .. حبشية أدخل الله بيته بركة" ^(٢). وفي إطار هاته النظرة أفتى بعض الفقهاء بأن جميع المشركين لا تقبل منهم الجزية الا "الحبش والترك" ^(٣).

وفي بعض كتب المناقب، تم توظيف الأحباش في إطار الكرامة الصوفية والدور الولائي، فاستناداً إلى ما للأحباش من مكارم وفضائل فقد نُسب إليهم الصوفي المغربي الأشهر الشيخ أبو يعزى يلنور (ت ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م) ف قيل إنه "عبد حبشي" ^(٤). وأورد ابن الزيات ^(٥) رواية تتعلق بترجمة الزاهد الشيخ محمد بن تميم الزناتي، الذي تخلف مع غيره عن المشاركة في معركة الأرك الشهيرة، فرآه أحدهم في منامه، وقد جاءه "أسود حبشي وقال له: بعثني إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لك: لا تنس أمتي". واستمراراً في سياق اثبات الكرامة، أورد ابن الزيات ^(٦) أيضاً رواية تتعلق برفقة من أهل الزهد والولاية ركبوا البحر يوماً فهاج بهم واشتد فخطبه أحدهم: "اسكن أيها البحر فإنها أنت عبد حبشي،

(١) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ٨٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢ مج ٣، ص ٣٤٥.

(٣) اللخمي: التبصرة، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الكريم نجيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، - ٢٠١١ م، ج ٣، ص ١٤٤٧.

(٤) التادلي: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المغرب، سلسلة الاطروحات والرسائل رقم ٦، ١٩٩٦، ص ١٨٤، ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، - ٢٠٠٨، ج ١، ص ٢٧٤.

(٥) ابن الزيات: مصدر سابق، ص ٣٩٥، عبد الإله بنمليح: الرق في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢١٠.

(٦) مصدر سابق، ص ٦٤.

قال: فسكن حتى صار كالزيت". ورغم ما تلح عليه الرواية من حطٍ لشأن الأحباش، إلا أنها تحمل بين طياتها دلالة واضحة حول الطاعة والامتثال والخضوع للإرادة الإلهية، وهي لا شك صفات تمثل الغاية العظمى التي استفرغ الأولياء والصلحاء طاقتهم وجهدهم من أجل الوصول إليها والتخلق بها.

توالت في المصادر إشارات عن أحباش كانوا من أهل الولاية والصلاح والزهد^(١). كما أشادت أدبيات الزهد والرقائق والأخلاق والمناقب بأحباش سبقوا غيرهم بخلق الوفاء^(٢)، والشفقة والمرحمة^(٣)، والمداومة على الأذكار واغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات^(٤)، وكثرة البكاء من خشية الله^(٥)، والمصارعة إلى

(١) ابن الجوزي: صفوة الصفوة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ج ٣، ص ٢٠٣. الهجراني: مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٤٢، ج ٦، ص ٢٠١، ٢٤٦، ابن الفوطي: مجمع الآداب في معجم الألقاب، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٤١٦هـ، ج ٢، ص ١٢٩، ج ٣، ص ٤٤٦، ج ٤، ص ٥٨٥. وخصص ابن الجوزي في كتابه "تنوير الغيش" فصلاً بعنوان "ذكر المتعبدين منهم والزهاد" وآخر تحت عنوان "المتعبات من نسائهم والفاضلات".

(٢) أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ص ٢٤٢، مسكويه: تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ٢٠٨.

(٣) البيهقي: المحاسن والمساوي، وقف على طبعه فريدريك شوالي، ١٣١٨هـ، مطبعة غليوم، ليسك، ج ٢، ص ٦١٣. باب "محاسن العبيد".

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج ٤، ص ٤١٥.

(٥) ابن رجب الحنبلي: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٩هـ، ص ٦٢..

التوبة والإنابة^(١)، وعدم الرهبة من الموت، والاستعداد للقاء الله^(٢)، ويذل غاية الجهد وتحمل المشاق الكبرى في سبيل تأدية الفرائض^(٣). ويات رؤية الحبش في الأحلام والرؤى بشارة لكل يمنٍ وخير ومحبة^(٤). وتقديرا للحبشي فقد أطلق عليه "أبو البيضاء"^(٥)، و "أبو الضياء"^(٦)، و "أبو المسك"^(٧)، و "أبو السرور"^(٨)، و "أبو الخير"^(٩).

لكن في مقابل تلك النظرة التي ألحت على فضائل الأحباش و "مناقبهم العلية ومراتبهم السنية وما لهم من أنفس شريفة وأخلاق رائقة لطيفة"^(١٠)، تعرض الأحباش لنظرة اجتماعية أخرى عبرت عن الدونية والازدراء^(١١)، طالت السودان

(١) ابن قدامة المقدسي: التوايين، مدار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٨٩، ابن الجوزي: المدهش، تحقيق مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٥٥.

(٢) الغزالي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٥٨.

(٣) ابن الجوزي: التبصرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٤٣.

(٤) النابلسي: تعطير الانام في تفسير الاحلام، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص ١٩١.

(٥) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، مج ١، ص ٥١١.

(٦) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق احسان عباس وآخرين، دار الغرب الاسلامي، تونس، ٢٠١٢، ج ١، ص ٣٥٣. قيل "ما ضر الحبشي لونه وان ازدروه".

(٧) الهجراني: مصدر سابق، ج ٣، ص ١٥٩.

(٨) الهجراني: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٤.

(٩) ابن الفوطي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٧.

(١٠) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ٧٨.

(١١) ابن عبد الملك المراكشي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٣. قيل "ما ضر الحبشي لونه وان ازدروه".

عامة^(١)، وهو ما أكدّه ابن الجوزي^(٢) حين تحدث عن دوافع تأليفه لكتاب "فضل السودان والحبش" حيث قال "اني رأيت جماعة من أخيار الحبشان تنكسر قلوبهم لأجل اسوداد ألوانهم.. ووضعت لهم هذا الكتاب في ذكر فضل خلق كثير من الحبش".

وهكذا كالت بعض المصادر للأحباش أسوأ النعوت والأوصاف^(٣)، فوصفتهم بأنهم أبعد ما يكون عن طباع البشر^(٤)، واتهمتهم بالحقارة^(٥)، والسفه^(٦)، والغباء ونقصان العقل^(٧)، والطيش والجهل والحماقة وعدم القدرة على

(١) انظر بهذا الخصوص دراسة:

Akbar M. : " The Image of Africans in Arabic literature: same unpublished

.Manuscripts" , in Slaves and Slavery in Muslim Africa ,pp.47-73

وربما عمق من تلك النظرة الطابع العدائي الذي غلب على العلاقات الإسلامية الحبشية ومنذ وقت مبكر.

انظر محمد جبر أبو سعدة: "نص قديم حول علاقة الحبشة بالدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان"، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، مج ٦، ع ٦، ١٩٨٢، ص ١٧٩-١٨٩، غيثان علي جريس: "تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام"، مجلة جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ع ٨، ١٩٩٣، ص ٤١١-٤٣٣.

(٢) تنوير الغبش، ص ٢٩.

(٣) ساعد على تلك النظرة صورة أبرهة الحبشي في الميخال العربي وما ورد من أحاديث حول

هدم الكعبة في آخر الزمان على يد عبد حبشي. المهجراني: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٢٠.

(٤) مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ترجمه عن الفارسية: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ص ٢٣.

(٥) ابن عبد الملك المراكشي: مصدر سابق، م ١، ص ٣٥٣.

(٦) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٨٨.

(٧) ابن الفقيه: البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٩٩.

التمييز^(١)، والشر^(٢)، والفساد^(٣)، واتباع الشهوات^(٤)، وشدة الغضب^(٥)، والكسل^(٦). وبات الحر القرشي مقابلاً للعبد الحبشي من حيث الرفعة والشرف، ف قيل: "تواضع للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشياً، وانتصف ممن أساء إليك وإن كان حرّاً قرشياً"^(٧) وقيل "أكرموا من أكرمكم وإن كان عبداً حبشياً، وأهينوا من أهانكم وإن كان رجلاً قرشياً"^(٨)، وأن للسلطان أن يرفع "عبدا حبشياً، ويضع قرشياً"^(٩)، وأنه "ليس للدنيا وفاء، ولا تتوافق مع أحد، لا الرفيع ولا الوضع، لا القرشي ولا الحبشي"^(١٠). وأخبر أحدهم أنه لما احتضر بشر بن مروان جعل

(١) صاعد الاندلسي: مصدر سابق، ص ١٤٧، ١٥٣.

(٢) ابن خرداذبة: مصدر سابق، ص ١٤٥، البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٢ ج ١، ص ٣٥٥، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ١٤١٤ هـ، ج ٤، ص ٣١٣، الحميري: مصدر سابق، ص ٢٥٦.

(٣) البلاذري: انساب الاشراف، تحقيق سهيل ذكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦ ج ٧، ص ٣٩.

(٤) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣٠٣، ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢ م، ج ٣، ص ٣٣٩.

(٥) القالي: الأمالي، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط ١٩٢٦ م، ج ١، ١٣٨.

(٦) قيل "أنوم من عبود كان حبشياً خطاباً لم ينم في محتطبه أسبوعاً ثم رجّع فنأَم أسبوعاً". المستقصى في الزنجشري: أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٨٧ م، ج ١، ص ٤٢٦.

(٧) أبو حيان التوحيدي: أخلاق الوزراء، حققه وعلق عليه: محمد بن تاووت الطنجي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢ م، ص ٩٢، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ج ٦، ص ٦٦.

(٨) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٣٥٩.

(٩) الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ٦٠٨.

(١٠) ابن فندمة: تاريخ بيهقي، دار اقرأ، دمشق، ١٤٢٥ هـ، ص ٥١٣.

يبكي ويقول: "والله وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ عَبْدًا حَبَشِيًّا لِأَسْوَأِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ؛ أَرعى غَنَمَهُمْ وَلَا أَدْخُلُ فِيهَا دَخَلْتُ فِيهِ"، ولما مات دُفِنَ بِجَوَارِهِ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ... ثُمَّ مَرَرْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَلَمْ أُمَيِّزْ بَيْنَ الْقَبْرَيْنِ، فَقُلْتُ: قَبْحُ اللَّهِ مِنْ دُنْيَا آخِرُهَا هَذَا"^(١).

وعليه، تم تشبيه كل وضع يسعى نحو الرفعة "كالحبشي يرتقي في السلم"^(٢). وهو ما استند إليه الوزير أحمد بن عطية في رسالته للخليفة عبد المؤمن الموحي (٥٢٧-٥٥٨ هـ/١١٣٣-١١٦٣ م) والتي عدد فيها أنه لو ارتكب كل خطيئة لا تخطر على قلب بشر، ثم استشفع عند الخليفة عبد المؤمن بالمهدي بن تومرت لغفر له كل تلك الخطايا، وذكر منها: "وابغضت كل قرشي وأكرمت .. كل حبشي"^(٣). وكأن إكرام الحبشي والإحسان إليه من منظور الوزير خطية تستوجب الصفح والعفو. وفي المجلس ذاته عقب أحد حاشية الخليفة ويدعى ابن وزير عن مدى طاعته وانقياده للخليفة وخضوعه له بقوله "وسيدنا رضي اله عنه لو جعل بينه وبين عبيده واجناده وعماله ورعيته عبدا حبشيا يوصل له عنا كلامنا ومسائلنا لعظمناه وأملناه وهاديناه"^(٤).

واستناداً إلى تلك النظرة الدونية بات مشاوراة الأحباش دليلاً على التواضع والتبسط وخفض الجناح وترسيخ مبدأ الشورى رغم دونية الشخص المشاور،

(١) ابن الجوزي: مراة الزمان في تواريخ الاعيان، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠١٣، ج ٩، ص ٩٥، ٩٧.

(٢) الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحليم هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٣٧.

(٣) السلاوي: الاستقصا لخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ج ٢، ص ١٣٣.

(٤) ابن عذاري: مصدر سابق، قسم الموحدين، ص ٥٨.

وهو ما تجلّى في قول أحدهم: "إني لاستشير حتى هذه الحبشية"^(١). وفي السياق ذاته وصف ابن الخطيب^(٢) مدينة سلا بالنضارة والحضارة "والأسواق السارة حتّى برقيق الحبشان". وكأنّ اشتغال تلك الأسواق على العبيد الأحباش لا يمنع كونها تسر الناظرين.

واتخذ الشعراء من الأحباش وأوصافهم مادة لهجاء خصومهم ومنافسيهم^(٣). ولم يسلم من ذلك حتى بعض الفقهاء الذين نعتوا الأحباش بأنهم السفلة الذين يرضون بالذل والصغار^(٤)، ولذا فقد أفتوا بتوقيع الحد على من قال لعربي يا "حبشي" لأن ذلك إهانة له وتنتقص من قدره، في حين يسقط عنه هذا الحد إن نعت حبشياً بأنه بربري أو فارسي أو قبطي^(٥)؛ استناداً إلى أن هذه الأجناس أرفع قدراً من الأحباش. كما شاع في بلاد المصامدة أن "نكاح الحبشية.. عار"^(٦).

(١) الثعالبي: الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، تحقيق إلهام عبد الوهاب المفتي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٠، ص ٢٠٨.

(٢) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢، ص ١٥٢.

(٣) بن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير في أبيات المعاني تحقيق: سالم الكرنكوي وعبد الرحمن بن يحيى بن علي البياني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٤٩م، ج ١، ص ٣٢٩، ٤٥٣، ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ١٤، ص ٢٩٠.

(٤) الزرقاني: شرح الزُّرقاني على مختصر خليل، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد السلام محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٣، ص ٢١١.

(٥) سحنون: المدونة، ج ١٦، ص ٣٢، ابن أبي زيد القيرواني: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٢٣، ابن يونس الصقلي: الجامع لمسائل المدونة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣م، ج ٢٢، ص ٤٧٦، خليل بن إسحاق: التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، مركز نجيويه للمخطوطات وخدمة التراث، ٢٠٠٨م، ج ٨، ص ٢٦٣.

(٦) ابن الزيات: مصدر سابق، ص ٣٢٨.

ويبدو أنها نظرة عامة شملت المجتمع الإسلامي بشكل عام حتى أن أحدهم كان يعير بأمه فكان يقال له "يابن السوداء... وكانت حبشية" (١).

اشكالية التمييز بين الحبشة وسائر السودان:

ثمة إشكالية تواجه محاولة البحث في موضوع "الأحباش" تتعلق بدلالة هذا المصطلح في المصادر، هل تتعلق بالأصل العرقي أم بلون الجسد ووصفه؟ وهل كان لدى مؤلفي تلك المصادر القدرة على التمييز بين أنواع السودان ومواطنهم وأصولهم وأجناسهم؟

انقسم القدامى بخصوص ذلك إلى فريقين: فريقٌ تمكَّن من التمييز بين أجناس الرقيق الأسود، والتمس المعايير الكفيلة بتجاوز الخلط والتعميم، اعتماداً على أماكن الجلب ومواطن التوريد؛ فالحبشي "بَفَتْحْ أوله وَالْمُوَحَّدَة مَعًا وَكسر الشين الْمُعْجَمَة" (٢)، "نسبة إلى الحبشة" (٣)، التي تقع على بحر القلزم وتنحصر حدودها بين بحر القلزم وبلاد الزنج والبجة والنوبة والصحراء (٤)، ويُطلق على الجماعة

(١) البلاذري: مصدر سابق، ج ٧، ص ١٢.

(٢) ابن ناصر الدين الدمشقي: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ج ٣، ص ١٠٨.

(٣) السمعاني: الأنساب، تحقيق عبد الرحمن المعلمي وآخرين، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٦٢، ج ٤، ص ٤٧، ابن القيسراني: المؤتلف والمختلف، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١١هـ، ص ٥١.

(٤) الاضطخري: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١١، ابن حوقل: صورة الارض، دار صادر، بيروت، ١٩٣٨، ص ١٦، ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق انور زناتي، مكتبة الثقافة الاسلامية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٣٨.

مسميات: الحبشة والحبش والأحباش والأحبش والحبشان والأحبوش والأحاييش^(١).

يبدو أن الجغرافيين والرحالة والبلدانيين والنسابة كانوا أعلم من غيرهم وأدرى بالأجناس والأعراق والمواطن، فقد عدد اليعقوبي^(٢) أجناس "الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان". وأشار المسعودي^(٣) إلى "سائر السودان" و"أجناس السودان"^(٤)، و"أنواع السودان"^(٥) ووعدهم منهم "النوبة والبجة والزنج.. الزغاوة والكانم ومركه وكوكو وغانة"^(٦). وأكد الاصطخري^(٧) أن بلاد السودان بلاد عريضة تجمع أجناساً شتى، وميز السودان غرب افريقية عن غيرهم من سودان الشرق ووصفهم بأنهم ليسوا "بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة إلا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع". ورصد صاحب كتاب حدود العالم^(٨) "سودان شرق افريقيا ومنهم" الزنج

(١) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦ م، ص ١٠٣، البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢ هـ، ص ١٦٣، السيوطي: رفع شان الحبشان، ص ٧٠، ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ١ (٢) البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ، ص ١٨٣. (٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣، ج ١، ص ٨٣.

(٤) المسعودي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠.

(٥) المسعودي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٤.

(٦) المسعودي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٤.

(٧) مصدر سابق، ص ٤٠.

(٨) مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ص ٧٣.

والحبشة والبجة والنوبة". وأشار صاعد الاندلسي^(١) إلى "أصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرهم". وسجل الزهري^(٢) أن نهر النيل يسكن على ضفتيه أمم كثيرة من السودان فمن كان منهم ناحية "المشرق فهم الحبشة وما كان لناحية المغرب فهم النوبة والزنج وجناوة". ونبه ابن خلدون^(٣) إلى ضرورة "التمييز بين الأمم"، وأن مسمى السودان اسم جامع لكل "الأمم المتغيرة بالسواد"^(٤)، لكن لا بد من التفريق بين "أمم السودان والحبشة والنوبة"^(٥)، أو "الزنج والحبشة والنوبة"^(٦)، ف "الحبشة مختصاً بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند"^(٧).

وأمعاناً في التمييز، تم التنبيه على عدم الخلط بين "الحبش وسائر أجناس السودان"^(٨)، كالنوبة والبجة والزنج وجناوة والزغاويين والمرويين والكانميين والغانيين^(٩). وتجنباً للخلط بين سودان الشرق الافريقي تم التمييز بين "الزنج

(١) التعريف بطبقات الامم، تحقيق غلام رضا، مؤسسة انتشارات هجرت، طهران، ١٩٩٧، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢) كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ١٢٣.

(٣) العبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ج ١، ص ١٠٧.

(٤) ابن خلدون: مصدر سابق، ج ١، ص ١٠٦.

(٥) ابن خلدون: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٦) ابن خلدون: مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٦٤.

(٧) نفسه.

(٨) البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ج ١، ص ٥١.

(٩) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ١٨٨٩، ص ٨٣، الاضطخري: مصدر سابق، ص ٤٠، ابن الفقيه: البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٢٩، ٤٣٠، مجهول: حدود العالم، ص ٧٣، صاعد الاندلسي: مصدر سابق، ص ١١، الإدريسي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠، ٣٨، الحميري: مصدر سابق، ص ٦١٩.

والحبش^(١)، و"السودان والحبش"^(٢)، و"النوبة والحبشة"^(٣)، و"الحبشة والبيعة"^(٤).

وكشف آخرون عن معايير جسدية يمكن الاستناد إليها لتجاوز الخلط فالأحباش يمتازون عن غيرهم من السودان "باعتدال الوجوه"^(٥). كما أن ألوانهم تختلف عن الزنوج ف"الزنج أشد سوادا من الحبشة"^(٦)، وعليه تم التمييز بين "سواد الحبشة واحتراق الزنج"^(٧). واستناداً إلى اللون كمعيار للتمييز بين أنواع السودان ذكر البكري^(٨) بان سودان كانم "جنس على حدة أشد سوادا من الجميع.. وليس بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة". وهكذا يتضح أن ألوان الأحباش كانت تجمع "بين السواد والبياض"^(٩)، أو سواد مائل "إلى الصفرة كلون الزيت"^(١٠)، ف

(١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص ٨.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٥هـ، ص ٢٨.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ١٥، الزوزني: قشر الفسر، تحقيق عبد العزيز الهماني، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية،

الرياض، ٢٠٠٦، ج ١، ص ١٤٥.

(٤) مجهول: حدود العالم، ص ٧٣.

(٥) مجهول: حدود العالم، ص ٢٠٣.

(٦) الاضطخري: مصدر سابق، ص ٣٥، ابن حوقل: مصدر سابق، ص ٥٠.

(٧) الثعالبي: ثمار القلوب، ص ٥١٦.

(٨) البكري: مصدر سابق، ص ١١.

(٩) الاضطخري: مصدر سابق، ص ٣٥.

(١٠) العكبري: شرح ديوان المتنبي، تحقيق مصطفى الصقا وآخرين، دار المعرفة، بيروت،

د.ت، ج ٤، ص ٢٩٥.

"الحبش الغالب عليهم الصفرة"^(١)، وهكذا ترد إشارة عن "حبشي أصفر يروق العين"^(٢)، وعن "جارية حبشية صفراء"^(٣)، وعن "حبشي صافي اللون"^(٤)

بل أبعد من ذلك، مكنت دراية البعض وخبرتهم بالأعراق والأجناس من التمييز بين الأحباش أنفسهم، فلما كانت بلاد الحبشة كبيرة وردت إشارات حول "أجناس الحبشة"^(٥) أو "أصناف الأحابيش"^(٦)، أو "أنواع الأحابيش"^(٧)؛ ربما لتعدد المدن والأقاليم داخل بلاد الحبشة نفسها ف"للحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة"^(٨)، فيما عرف بـ "ممالك الحبشة والأحابيش"^(٩)، أو "بلاد الأحابيش"^(١٠)،

(١) العكبري: نفسه، الكتاني الأندلسي: كتاب التشبهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق احسان عبّس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٢٦.

(٢) النويري: مصدر سابق، ج ١٠، ص ٧٣، القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الانشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٨، ص ٣٩٠. كما تغنى بعض الشعراء بجمال الغلمان الأحباش. انظر ابن الشعار: مصدر سابق، ج ٨، ص ١٥٠.

(٣) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ، ج ٢٤، ص ٢٨٧.

(٤) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢، ج ٤، ص ٢٢١.

(٥) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ٩٨، المقرئ: الإلهام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام، ص ١٠٤.

(٦) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٣٠.

(٧) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٠، المسعودي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠.

(٨) المسعودي: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٨.

(٩) مجهول: الاستبصار، ص ١٠٣، البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٥١١، الحميري: مصدر سابق، ص ٣٦١.

(١٠) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٨.

والتي احصاها البعض^(١) باثني عشر اقلياً. وعليه فقد أشار البعض إلى أنواع الأحباش مثل "الأبحرية والسحرية والداموتية"^(٢). و "القراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة.. وغيرهم من أنواع الأحباش"^(٣).

في مقابل هذا الفريق ظهر فريق آخر توسع في استخدام مدلول المصطلح فالحبشي مرادف للسود^(٤)، فالأحباش لا يُقال لهم "بيض ولا حمر وليس لهم اسم إلا السود"^(٥)، وهكذا قيل عن الرجل الذي يميل لونه للسود أن "فيه حبشية"^(٦). ولما كان لون أهل جنوب الجزيرة العربية أميل للسود من أهل الشمال فهم "الحبشية أشبه"^(٧). بناء على ذلك ونظراً لسمة بشرة الصحابي عمار بن ياسر وجعودة شعره وصف بأنه "فيه حبشية"^(٨). وفي تفسيرها لتسمية الزاهد محمد بن عيسى بن أبي الورد (ت ٢٦٣هـ/ ٨٧٧م) بالحبشي ذكرت المصادر أنه "سمى حبشياً لسمرته"^(٩). ولما رأى رجلٌ بنتاً للفرزدق الشاعر سوداء اللون قال لها "فها بالك

(١) الالهام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام، ص ٧٨.

(٢) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ١١٤.

(٣) المسعودي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠.

(٤) البطليوسي: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد

المجيد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٥) الجاحظ: الرسائل، ص ٥٤٨.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٧) الجاحظ: الرسائل، ص ٥٤٩.

(٨) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ٢٠٦.

(٩) البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٣، ص ٤١٩.

حبشية" ^(١). وهو ما ينسحب على الشاعر القيرواني حسين التميمي (ت ٣٤٣هـ/ ٩٥٥م) الذي لقب بعنتره لسواده حيث وصفته المصادر بأنه "حبشي أسود" ^(٢). كما ترد إشارة تخص رجلاً خرج في سفر فأصابته السموم "فأسود وجهه حتى صار حبشياً" ^(٣).

وانطلاقاً من تعميم اللفظ على كل ما هو أسود وُصف خاتم الرسول الكريم بأن "فصه حبشي" ^(٤)، ووصف رجل شديد السواد بأنه "حبشي حبشته حبشية" ^(٥)، ووُصف الغراب بأنه "حبشي داجنة يخر ويعتلي" ^(٦)، والفحم بأنه "فاحم الجلباب حبشي الجسم" ^(٧)، والزق بأنه "حبشي لا حراك به" ^(٨)، والليل لسواده بأنه "كالحبشي" ^(٩). وشبه الشاعر الاندلسي أحمد بن فرج الجياني (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) دياجي الليل بأنها "أحاييش" ^(١٠)، وشبه آخر ^(١١) الدجى بأنه

(١) ابن عاصم الغرناطي: حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، قرأه وعلق حواشيه عبد اللطيف عبد الحليم، مطبعة دار الكتب والوثائق اتلقومية، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٧١.

(٢) ابن رشيقي القيرواني: انموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق محمد العروسي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦، ص ٣١٦.

(٣) البلاذري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٢.

(٤) ابن عبد ربه: مصدر سابق، ج ٥، ص ٨.

(٥) الجاحظ: الرسائل، ص ٥٥٧.

(٦) أبو العلاء المعري: مصدر سابق، ص ٨٧.

(٧) الباخريزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر، دار الجليل، بيروت، ١٤١٤هـ، ج ١، ص ٦٦١.

(٨) أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، دار الجليل، بيروت، د.ت، ص ٣٢٩.

(٩) الصولي: اشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، مطبعة الصاوي، القاهرة، ١٩٣٦، ص ٢٠٨.

(١٠) أبو العباس التيفاشي: سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٥٥.

"جلدة الحبش". وهو ما نجد له نظيراً عند الشاعر الاندلسي علي بن أبي الحسين (ت ٤٢٠هـ / ١٠٢٩ م) الذي وصف ظلام الدجى والصبح يحفزه "كأنه جيش روم يهزم الحبشا"^(٢). ومهد ابن الخطيب^(٣) مقدمة كتابه معيار الاختيار بعبارته "ضمني الليل.. ودلفت جيوشه الحبشية". وأنشد أحمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ / ٨٦٠ م) في غناب أبيض وأسود:

أهديت بيضا وسودا في تلونها كأنها بنات الروم والحبش^(٤).

وهكذا صار يُطلق لفظ حبشي على كل أسود على اختلاف موطنه^(٥)، وباتت لفظة "الأحباش" اسماً جامعاً "يشمل جميع السودان"^(٦)، ليتسع مدلول بلاد الحبشة عند أحد القدماء^(٧) ويحددها خطأ بالمنطقة الممتدة من بحر الهند شرقاً وبلاد التكرور غرباً وتشمل السودان الشرقي والأوسط والغربي. ففضلاً عن المثل الذي

(١) أبو الفتح العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ٣٣، المقرئ: مصدر سابق ج ٤، ص ٧٥.

(٢) الكتاني: مصدر سابق، ص ٣٤.

(٣) معيار الاختيار، ص ٧٣.

(٤) الكتاني: مصدر سابق، ص ٨٥.

(٥) أبو البركات الموصلي: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ٢٠٠٥ م، ج ٨، ص ١٩٢.

(٦) الخطاب الرعيني: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ١٩٩٢، ج ١، ص ١٢٧.

(٧) المقرئ: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق الدكتور محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢ م، بيروت، ج ١، ص ٣٨٧.

يشير إلى ندره الشيء كندرة "الأبيض بين الحبشان"^(١)، قيل أن كل ما "وراء الصحراء من الحبشة"^(٢). وأن البجة "جنس من أجناس الحبشة"^(٣). وأن كل "زنجي حبشي"^(٤)، وأن "البجة جنس من الحبش"^(٥)، وأن الأحباش أصناف وأنواع "الزغاوة والمفافوا ومركة وكوكو وغانة وغيرهم من أنواع الأحباش"^(٦)، وأن بلاد الزنوج كل ما يقع جنوب أسوان وأطلق على ملكها اسم "سلطان الحبش"^(٧).

ويبدو أن هذا الخلط أثار انتباه ابن وهب الكاتب^(٨) (ت بعد ٣٣٥هـ/٩٤٧م) فراح يصحح المسار بقوله: "فأما السواد الذي هو من أوصاف الحبشي فليس حيث وجدناه حكمنا لحامله بأنه حبشي ومتى قلنا ذلك كنا مبطلين، ولكننا إذا قلنا: إن بعض من يوصف بالسواد حبشي صدقنا".

(١) ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣، ص ٧١.

(٢) المقري: ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، ١٩٣٩، ج ١، ص ٢٧٩.

(٣) مسكويه: تجارب الامم وتعاقب الهمم، تحقيق ابو القاسم امامي، سروش، طهران، ٢٠٠٠، ج ٤، ص ٣٠٢.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ٣. ١٩٨٣، ص ١٤٣.

(٥) مجهول: الاستبصار، ص ٨٥.

(٦) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٦.

(٧) بنيامين التطيلي: رحلته، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٨) البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٦٧.

صفات الاحباش المرغبة في اقتنائهم

تم الإقبال بشكل لافت على جلب الأحباش والاستكثار منهم في عموم العالم الإسلامي لما تمتعوا به من "الامتياز على سائر أصناف الخدم والارتفاع على سائر الأتبع والحشم" ^(١)، من خصال محمودة رفعت من قدرهم عند مالكيهم ورغبت في الاستكثار منهم ^(٢) وجعلتهم "مرغوب في جنسهم" ^(٣). فقد وصفت المصادر الأحباش بأنهم "أفضل أجناس السودان" ^(٤). للذكور منهم "حذق ومعرفة يتباينون بها من سائر قبائل السودان" ^(٥)، وعندهم "الكرم الوافر وحسن الخلق" ^(٦)، والشجاعة والأمانة على النفوس والأموال ^(٧) وحسن الخلق وقلة الأذى وطيب النفس وحسن الظن وخفة الحركة والروح ^(٨).

(١) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ٨٦.

(٢) ابن سعيد: بسط الارض، ص ٣٠.

(٣) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ٩٧.

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ٩٧.

(٥) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٧.

(٦) ابن الجوزي: تنوير الغبش، ص ٤٠.

(٧) القرافي: مصدر سابق، ج ١٠، ص ٤٠٨. قال صاحب كتاب "الحدس والفراسة في امتحان من يباع من الرقيق بصناعة":

والحبش خير الزنج والسودان	وخير مأمون من الغلمان
فيهم صلاح ولهم سداد	وعفة يزينها اقتصاد
وفيهم أمانة وصون للمال	والنفس وفيهم عون

نقلا عن: مؤلف مجهول: التحقيق في شراء الرقيق، مخطوط بمعهد المحفوظات العربية تحت رقم ١٥/اجتماع، ورقة ٥٠.

(٨) ابن الجوزي: تنوير الغبش، ص ٤١، السيوطي: رفع شأن الحبشان، ص ٢٠٣. ومما يروى في هذا الشأن أن عبدا حبشيا ناوله سيده طعاما يأكله ثم انه طلب منه قطعة منه فلما أكله وجده

كما عجت المصادر بالإشادة بما تمتعت به بعض الحبشيات من دقائق الجمال ولطائف الحسن حتى صرن نموذجاً للذوق الجمالي ومضرباً للمثل في الدلال^(١)، ففيهن "محاسن وصباحة ورشاقة وملاحة"^(٢) و "جمال وحلاوة وحسن نغمة"^(٣)، ولهن "القناء والكحل والشعور المرسله"^(٤)، والشفاه الشهية^(٥). وتميزن بـ "طيب الأفواه وسهولة العبارة وعدوبة الكلام"^(٦). وبشرتهن تجمع بين السمرة والصفرة

مرا فسأله "يا غلام كيف أكلت هذا مع شدة مرارته ، قال: يا مولاي قد أكلت من يدك حلوا كثيرا ولم أحب أن أريك من نفسى كراهة لمرارته " فشكر السيد له واعتقه ، انظر التوحيدي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٢١.

(١) مجهول: أوصاف الغلمان وأوصاف الجوارى الحسان، مخطوط بعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٨٧ ادب "رواق المغاربة"، ورقة ٣٥، الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م، ص ٢٨٠. بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٨ م، ج ٢، ص ٧٥٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت، ج ٧، ١٩٩٤، ص ٣٧، السيوطي: رفع شأن الحيشان، ص ٢٠٤-٢٠٥، ابن عبد الباقي: "كتاب الطراز المنقوش في محاسن الحبوش"، ضمن أعمال ندوة الرق في تاريخ المغرب، كلية الآداب بالقيظرة، ٢٠١٠ م، ص ١١٤-١١٥.

(٢) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ٧٨.

(٣) ابن الوردى: مصدر سابق ص ١٣٩. لكن في المقابل وصفت بعض المصادر أمة حبشية بأنها "حبشية.. مشوهة المنظر". الرقيق القيرواني: قطب السرور في اوصاف الانبذة والخمور، منشورات الجمل، ٢٠١٠، ص ٤٣. واخرى بأنها "مشقوقة القدمين كبيرة الشفتين". الرجراجي: مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، اعتنى به: أبو الفضل الدميّاطي وأحمد بن عليّ، دار ابن حزم، ٢٠٠٧ م، ج ٣، ص ٣١٣.

(٤) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٧.

(٥) ابن هلال الصابىء: الهفوات النادرة من المغفلين الملحوظين والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين، تحقيق صالح الأشر، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ت، ص ٩.

(٦) ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ٤١.

التي تميزهن عن سواد الزوج وبياض الروم^(١)، . لذلك "حصلت زيادة الرغبة فيهن والانهماك بحبهن"^(٢). فالحبشية "رشيقة القد طويلة القامة عظيمة الهامة كاملة العقل شهمة النفس عطرة.. فطنة حاذقة ضحوكة السن كبيرة المزاج"^(٣). وشاع بين الناس وقتئذ أنه "لا أسحر بعينها من حبشية"^(٤)، تصيد بها "أرباب الهوى والهيام"^(٥). وتغنى الشعراء بجمال الحبشيات^(٦)، و"الملاح الصفر من ولد الحبش"^(٧)، لذا ارتفعت أسعارهن حتى أن "قيمة الجارية الحسنة منهن ثلثائة دينار وما فوقها"^(٨). كما يشير الجاحظ^(٩) إلى جارية حبشية بلغت من الجمال الفائق أن بلغ سعرها "مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار"

أوصى أهل الخبرة والدراية والمعرفة بالتسري بالحبشيات لأن "أشهى النساء.. الحبشيات وبنات الحبشيات"^(١٠)، ولأن "جماعهن يشفى العليل ويطفىء الغليل ويزيل الأمراض الحادثة من البرودة والرطوبة وينفع من وجاع

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان، طبعة: مصر، ١٨٦٦م، ص ٦٢، القرافي: الذخيرة، ج ٥، تحقيق: محمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٤٣، العمري: مصدر سابق، ج ٢٤، ص ٢٨٧، الزرقاني: مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٨٦، ج ٨، ص ٥٨.

(٢) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ١١٤.

(٣) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ١١٤.

(٤) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٩٣.

(٥) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ١١٥.

(٦) الجاحظ: الرسائل، ص ٥٥٦، ابن الجوزي: تنوير الغمش، ص ٢٣٩، الباخري: مصدر

سابق، ج ١، ص ٣٥٧، الابشيهي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢٧.

(٧) النويري: مصدر سابق، ج ٥، ص ٧٨.

(٨) ابن الوردي: مصدر سابق، ص ١٣٨.

(٩) الرسائل، ج ٢، ص ١٧٧.

(١٠) الجاحظ: الرسائل، ج ١، ص ٢١٥، الزرقاني: مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٨٦، ج ٨، ص ٥٨.

المفاصل... وذلك لصحة امزاجهن واعتدال عناصرهن وقوة أبدانهن" (١)، و"فيهن خاصية ليست في نساء الآدميين وذلك أنهن اشد النساء لحماً وأضيقهن فروجاً وأحسنهن مباشرة" (٢)، كما أنهن "الطف مما عداهن مزاجاً وأرق بشرة وأعدل حرارة فلذلك هن أوفق مطلقاً" (٣). كما أنهن "ليس فيهن من ذفر السودان شيء" (٤). لذلك كان الرجال "يستحسنون اتخاذ السراري منهم، ويفضلونهن على جميع ما يتخذون" (٥)، كما فتن بهن "الخلفاء والملوك وأعيان الناس" (٦)، وكانوا يتنافسون في "اثمائهن ويتخذونهن أمهات أولاد لحسنهن وطيب مباضعتهن" (٧). وهكذا تترد في المصادر الإشارات عن كثرة التسري بالحبيشيات واتخاذت أمهات أولاد من قبل الخلفاء والأمراء ومن دار في فلکهم من القادة والمتنفذين (٨). ولذلك ظهر جيل من العرب "أعرق فيه الحبيشيات" (٩)، عرفوا

(١) ابن عبد الباقي: مصدر سابق، ص ١١٤.

(٢) ابن خلدون: مصدر سابق، ج ٧، ص ٣٢١.

(٣) داوود الانطاكي: تزيين الأسواق في أخبار العشاق، تحقيق محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٣٧.

(٤) البكري: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٧.

(٥) الحميري: مصدر سابق، ص ٢٤٥.

(٦) ابن إياس: نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٤٣٩ جغرافيا، ميكروفيلم ٤٥٨٥٣، ورقة ٧٥، العمري: مصدر سابق، ج ٢٤، ص ٢٨٧.

(٧) الحميري: مصدر سابق، ص ٥٨٥.

(٨) البلاذري: مصدر سابق، ج ٥، ص ٧٨، ياقوت الحموي: معجم الادباء، ج ٥، ص ٢٠٢٢، ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج ١، ص ٥٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤١، ج ٢، ص ٢٠، السخاوي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٢، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٧٢، الهجراني: مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٠٦، الرجراجي: مناهج التحصيل، ج ٣، ص ٢١٨، الزرقاني: مصدر سابق، ج ٣، ص ١١٨. الهجراني: مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٠٦.

بـ "أبناء الحبشيات" ^(٢)، جمعت ألوانهم "السود والبياض" ^(٣)، لأن آبائهم البيض قد كثرت على "مناكحهم الجوار السود من الحبش والنوبة" ^(٤).

وتحفظ لنا المصادر أسماء جوار حبشيات نلن الخطوة عند اسياذهن وتحولن الى امهات اولاد بعد اتخاذهن محطيات مثل طاب الزمان، وتفاحة ^(٥)، ونزهة ^(٦)، وغزال ^(٧)، وسبحاء ^(٨)، كوكب ^(٩)، وغصون ^(١٠)، ونور الصباح ^(١١).

وفي محاولة للتأكيد على التسري بالحبشيات ببلاد المغرب واتخاذهن مولدات تلوح أمامنا عدة اشارات، فقد اتخذ بعض الأمراء الاغالبية الحبشيات كحظيات وأمهات أولاد، وهو ما يفهم من بعض الألقاب التي حملها بعضهم مثل الأمير الأغلبى احمد بن عمر بن عبد الله الذى لقب بالحبشى ^(١٢). وفي دولة بني مرين تشير

(١) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣٠٣.

(٢) ابن المجاور: مصدر سابق، ص ١٥.

(٣) الاصطخري: مصدر سابق، ص ٣٥.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٥) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،

بيروت، ١٩٩٨، ج ١، ص ٢٨٠، ج ٦، ص ٣٨٥.

(٦) ابن الفوطي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٤٥٣.

(٧) الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج ٢،

ص ١٩٥.

(٨) مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١٥٨.

(٩) السخاوي: مصدر سابق، ج ١١، ص ١١٣.

(١٠) السخاوي: مصدر سابق، ج ١٢، ص ٣٠.

(١١) السخاوي: مصدر سابق، ج ١٢، ص ١٣٠.

(١٢) ابن عذارى: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٠.

المصادر إلى أن السلطان أبا سعيد عثمان بن يعقوب المريني تسرى بجارية حبشية أنجب منها ابنه الأكبر على^(١)، الذي عُرف بالأكحل لسواد لونه^(٢).

وامتد الأمر ليشمل أبناء الاوساط الشعبية فقد استأجر الإمام المهدي الفاطمي اثناء تواجده بسجلماسة دارا من رجل يعرف بـ "ابن الحبشية"^(٣). ومع اختلاف المصادر حول الأصل العرقي للثائر أبي يزيد النكاري -الذي كانت أمه "امة سودانية تسمى سبيكة"^(٤)- فإن إحدى هذه الروايات ترده إلى أصول حبشية فنعتته بـ "الحبشي الأسود"^(٥). وفي ترجمته للشيخ أبي مدين ذكر ابن الزيات أن أبا يعزى بشر تلميذه أبا مدين بأنه ستهدى له جارية حبشية يرزق منها ولدا، فأهدى له تاجر ببجاية جارية حبشية فرزق منها ولدا سماه محمد، ثم صار الشيخ في حيرة من أمره لأنه لم تكن لديه الرغبة في الزواج منها لأن " لان نكاح الحبشية عند المصامدة عار"، فتبرع احد تلامذته وتزوجها وكان يربي ولدها فحفظ القرآن وظهرت منه فراسات^(٦). كما فضل الناس الحبشيات والزنجيات لارضاع الأطفال^(٧)؛ لأن عندهن رحمة وحنينا للأطفال^(٨)، فـ "الحبشيات.. يصلحن للائتمان

(١) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٧، ص ٣٢١.

(٢) السلاوي: مصدر سابق، ج٣، ص ١١٨.

(٣) البياني: سيرة جعفر الحاجب، نشر ايفانوف، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، م ٤، ج ٢، ١٩٣٦، ص ١٩١.

(٤) ابن حماد: اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول احمد البدوي، ط. المؤسسة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٣٠.

(٥) البكري: المسالك، ج٢، ص ٦٩٨.

(٦) التادلي: التشوف الى رجال التصوف، تحقيق احمد التوفيق، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص ٣٢٨.

(٧) مجهول: شراء الرقيق، ورقة ٤٩، السقطي: م.س، ص ٣٩. Savage: op. cit, p. 354.

(٨) السقطي: م.س، ص ٥٣.

على النفوس" ^(١) ولذا عرفوا باسم رقيق الحضانة" ^(٢)، بل نص ح الأطباء بالبانين لعلاج بعض الأمراض التي تصيب الرضع ^(٣).

الأحباش والخصاء.

ارتبطت عملية الخصاء بالأحباش بشكل كبير حتى شاع في المجتمع الاسلامي أن "الحبشة بالإطلاق أفضل أجناس السودان وخصيان الملوك" ^(٤)، وأن "خصيان الحبشة أفضل خصيان" ^(٥)، و"أفخر الخصيان" ^(٦). وهكذا تتردد الاشارات عن "عبد خصي حبشي" ^(٧)، وعمن اشترى "خصياً حبشياً" ^(٨). ونظراً

(١) ابن بطلان: م.س، ص ٣٧٥.

(٢) ابن ابي زيد القيرواني: النوادر والزيادات علي ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق

محمد عبد العزيز الدباغ، ط. دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٩، ج ١١، ص ٣٥٥.

(٣) ابن سينا: القانون في الطب الطُّرُّ إذا كانت زنجية أو حبشية وترضع الصبي فتزول الزرقه

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ٩٧.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ، ج ٤،

ص ٣٠٩. خريدة العجائب وفريدة الغرائب

المؤلف: سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردى، البكري القرشي، المعري ثم

الحلي المتوفى: ٨٥٢ هـ

المنسوب خطأ: للقااضي زين الدين عمر بن الوردى البكري القرشي

المحقق: أنور محمود زناتي - كلية التربية، جامعة عين شمس

الناشر: مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة

الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م

(٦) ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، د.ت، ج ١، ص ٩٥.

(٧) مصدر سابق، ص ١٣٩.

(٨) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد ابو الفضل، دار احياء

الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ج ١، ص ٥٩٧.

لارتباط الخصاء بالأحباش فقد ندر من العبيد من سلم من ذلك فيوصف بأنه " كان عبداً حبشياً فحلاً" ^(١).

تعددت مراكز خصاء الأحباش مثل مدينتي وشوا وهدية ^(٢) ومدينة سحرته والتي وصف أهلها بأنهم "يخصون من يقع إلى أيديهم" ^(٣)، وحسب إشارة العمري ^(٤) فإن "ملك أمهرة يمنع من خصي العبيد، وينكر هذا ويشدد فيه"؛ وهو ما حدا بالتجار إلى الذهاب بالعبيد إلى تلك المناطق لإتمام عملية الخصاء، ويبدو أن الحرص على سرعة إنجاز العملية إمعانا في الكتمان والتستر عن الأعين أحدث حالة من الارتجال؛ مما أودى بحياة كثير من العبيد، وهو ما عبر عنه العمري ^(٥) بقوله: "والذي يموت منهم أكثر من الذي يعيش وأضر ما عليهم حملهم بلا معالجة من مكان إلى مكان ولو عولجوا في مكان خصيهم كان أصلح لهم، ولولا نقلهم إلى مكان يعالجون به ما سلم .. أحد منهم". وهكذا سجل أحد الباحثين ^(٦) أن عملية خصاء السودان كانت على قدر كبير من الخطورة والإيلام وإن قلة قليلة كانت تنجو منها سالمة حتى أن واحدا فقط من بين كل عشرة كان ينعم بالحياة بعد إجراء تلك العملية. ولعل فيما استخدمته المصادر من ألفاظ كالسل والقط

(١) النويري: مصدر سابق، ج ٢٩، ص ٣٦٠.

(٢) العمري: م.س، ج ٤، ورقة ٢٢، ابن سعيد: بسط الأرض، ص ٣١، ابن الوردي: م.س، ص ٤٨.

(٣) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ٩٨.

(٤) مصدر سابق، ج ٤، ص ٧٧.

(٥) نفسه.

(٦) Melvin): Slavery, Enc. Of the Social sciences, v. 13, 1949, p.79.

والشف^(١) والقطع^(٢) والمسح والإمتلاخ^(٣) كمفردات لعملية الخصاء وأنواعه ما يؤكد على وحشية العملية ومضاعفة أثرها الإيلامي على الخصى.

أفرد الجاحظ في كتابه الحيوان^(٤) فصلاً للحديث عن "خصيان الحبشة" تحدث فيه عن أثر الخصاء فيهم مثل تغير الصوت وثقل الحركة وخسة النفس وقلة النشاط وسلس البول وحدوث فتق بالسرة وانقلاب الشفاه وتغير لونها وكأنها مصابة بالبرص.

مصادر وروافد جلب الأحباش ومؤشرات حضورهم ببلاد المغرب.

تعددت روافد ومصادر جلب الأحباش خلال العصر الوسيط، وكان في مقدمتها التجارة؛ حيث اعتاد التجار دخول الحبشة لجلب الرقيق وتوزيعهم على بلاد الإسلام شرقاً وغرباً^(٥)، لا سيما جزيرة دهلك التي كان "يحمل العبيد والإماء من الحبشة إلى سائر الآفاق"^(٦)، وميناء زيلع (زالغ) الذي كان يرد إليه من "بلاد الحبشة... الرقيق والفضة"^(٧)، واعتبره ابن سعيد^(٨) "محل حط واقلاع ومنها يتوزع رقيق الحبشة على بلاد الاسلام الساحلية. وقد أجاد أهلها اللغتين العربية

(١) المقدسى: مصدر سابق، ص ٢٤٢.

(٢) مؤلف مجهول: بشائر الفتوحات والسعود في احكام التعزيرات والحدود، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٤١ بعثة المعهد الأولى إلى المغرب،، ورقة ٢٧.

(٣) الجاحظ: الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ج١، ص ص ١٢٩-١٣١.

(٤) الحيوان، ج ١، ص ٧٦، ٧٩، ٨٠.

(٥) مجهول: حدود العالم، ص ٢٠٣، ابن سعيد: بسط الأرض، ص ٣٢، الجغرافيا، ص ٩٩.

(٦) الحميري: مصدر سابق، ص ٢٤٥.

(٧) الإدريسي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٤. الحميري: مصدر سابق، ص ٢٨٢.

(٨) الجغرافيا، ص ٩٩.

والحبشية^(١)، وسواكن التي كان يخرج منها " رقيق البجاة والحبشة " ^(٢)، وزبيد التي كان إليها "أهل الحبشة يجلبون رقيقهم" ^(٣). وكان لتجار مصر واليمن نشاط ملحوظ في هذا الجانب^(٤)، فحسب الأصطخري^(٥) كان " رقيقهم ونجبهم وسائر ما بأرضهم يقع الى مصر"، وهى العبارة ذاتها التي أدرجها ابن حوقل^(٦) ضمن مؤلفه معقبا عليها بقوله " ورقيقهم... يقع الى مصر في جملة التجار المصريين او ما قدم به بعضهم". وذكر البكري^(٧) أن بلاد الحبشة "يتجهز إليهم التجار بالامتنعة من مصر واليمن وما يجاورها"، ومما ساعد على كثرة جلبهم إلى مصر أن "مالت ملوكهم إلى الحبشية، ورغبت في الاستكثار منهم، حتى أصبحت مصر بهم آهلة"^(٨)، "حتى أن الحبشي ليبيع بالكساء"^(٩). و"بربطة ورق"^(١٠). وأشار

(١) العمري: مصدر سابق، ج ٤، ص ٦٦.

(٢) الحميري: مصدر سابق، ص ٣٢٣.

(٣) الحميري: مصدر سابق، ص ٢٨٤.

(٤) الهمداني: مصدر سابق، ص ٥٣، ٩٨، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص ٧١، ٢٤٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ج ٤، ص ٧٨، العمري: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٧٤، ج ٤، ص ٣٩.

(٥) مصدر سابق، ص ٥٤.

(٦) مصدر سابق، ص ١٦٢.

(٧) مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٢٧.

(٨) العمري: مصدر سابق، ج ٣، ص ١٧٩.

(٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ٥٤. قيل ان كافور الاخشيد كان خصيا حبشيا يبيع عام ٣١٢هـ/ ٩٢٤م بثمانية عشر ديناراً وهو ثمن قليل بالنسبة لاسعار الخصيان في تلك الفترة والذي كان يراوح بين ٢٥ الى ٣٠ ديناراً. آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ت محمد عبد الهادي أبو ريذة، ط. لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٥٧، ج ١، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(١٠) المقرئى: الإلهام بإخبار من بأرض الحبشة، مصر، ١٨٩٥، ص ص ١٦، ١٧.

الإدريسي^(١) إلى القرب الجغرافي بين الحبشة وبلاد اليمن والذي ترتب عليه أن كان "أهل الحبشة يجلبون رقيقهم إليها". كما ترد المعلومات حول جلب وصائف حبشيات إلى مرسى عدن^(٢). ومن مصر واليمن دخل الأحباش إلى بلاد المغرب، حيث كانت تلك البلاد ملتقى للتجار المغاربة والأحباش^(٣).

كانت الواحات الليبية من أهم مراكز جلب الرقيق الأسود ومنهم الأحباش، فقد تحدث اليعقوبي^(٤) عن مراكز تجمع الرقيق الأسود مثل زويلة وكوار وفزان والتي كان تجارها البربر يقومون بجلب "الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم". وهو ما نجد له نظيراً عند كل من ابن سعيد^(٥) والحميري^(٦) حيث تحدثوا عن القوافل التجارية التي كانت تخرج من المناطق الصحراوية الليبية ومدن افريقية وأرض الجريد إلى بلاد الحبشة محملة بالزئبق والزعفران والثياب لتعود بجلبها من الرقيق وغيره. ويبدو أن أعداد الأحباش والسودان عامة بتلك المدن كان وفيراً حتى أن عقبة بن نافع حَصَلَ الجزية من أهلها في صورة عبيد، فقد فرض على أهل

(١) مصدر سابق، ج١، ص ٥٣.

(٢) الهجراني: مصدر سابق، ج٦، ص ٢٥٧.

(٣) الإدريسي: مصدر سابق، ج١، ص ٥٣، ابن جبير: الرحلة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ت،

ص ٣٧، العمري: مصدر سابق، ج٣، ص ٤٨٧.

(٤) مصدر سابق، ص ٣٤٥.

(٥) مصدر سابق، ص ٤٦.

(٦) مصدر سابق، ص ٢٨٢، ٣٣٢.

فزان" ثلاثمائة عبدا وستين عبدا" ^(١) وهو العدد ذاته الذي فرضه علي أمراء ودان وقصور كوار جنوب فزان ^(٢).

وتأتي في هذا السياق إشارة الفقيه المالكي ابن يونس الصقلي ^(٣) (ت ٤٥١هـ/ ١٠٦٠م) بأن "الفزازنة جنس من الحبشة"، للتأكيد على كثرة الأحباش في هذه المدينة. كما أدرج الهمداني ^(٤) فزان ضمن بلاد السودان. وهكذا ذكر أحد الباحثين ^(٥) بأن السواد الأعظم من سكان فزان تسود فيهم الصفات الزنجية رغم أن سكانها الأصليين لم يكونوا من الزوج بل كانوا من البربر، ثم تسربت إليهم الدماء الزنجية في مختلف العصور حتى طغت صفات الزوج على صفاتهم.

لم يُحلّ البعد النسبي للحبشة عن المغربين الأوسط والأقصى دون قيام علاقات تجارية، فقد كانت تدخل منهما القوافل "إلى تخوم الحبشة من وراء الصحراء" ^(٦)؛ لجلب الذهب والمسك والعقاقير والعبيد والخدم ^(١). وهكذا

(١) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٢٦٢، البكري: مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦١.

(٢) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٢٦٤، البكري: نفسه.

Fisher (Humphery): Slavery in the History on Muslim Black Africa, London, 2001, p. 149, Pipes D: Slave Soldiers and islam: The Genesis of amilitary system, New Haven, 1981, p. 142, Roth W: Oqba ibn Nafi', el – Fihri, der Eroberer Nordafricas, Gottingen, 1859, p. 36

(٣) ابن يونس الصقلي: الجامع لمسائل المدونة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣ م، ج ٢٢، ص ٤٧٦.

(٤) صفة جزيرة العرب، ص ٤٠.

(٥) Despois J: Mission scientifique du Fezzân, 1944-1945: Anthropologie et ethnologie, Paris, 1948, pp. 32-33.

(٦) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت، ص ٧١

انتشرت بالمغرب الأقصى أسواق بيع "الرقيق الحبشان"^(٢). وقد أورث تواجد التجار المغاربة بأرض الحبشة أهلها حب التشبه بهم ف"زيهم زي المغاربة... وسلاحهم فيه درق كدرق المغاربة... ونعالهم كنعال المغاربة"^(٣). وقد جرت عادة التجار عند شراء الأحباش طلي أجسادهم بالزيت ويرون في ذلك منفعة لهم^(٤).

كان **الخطف** أحد روافد جلب الاحباش لبلاد المغرب؛ فيبدو أن تقاطر القوافل التجارية إلى الحبشة وما كانت تدره من أرباح من جراء تجارة الرقيق قد أوجدت مناخاً خصباً لخطف الأطفال الصغار الأحرار وبيعهم رقيقاً^(٥).

وظلت تلك الظاهرة حاضرة خلال العصر الاسلامي؛ حيث اعتاد اللصوص بصحبة التجار خطف "الصبيان والصبيانة من اولاد الحبشة فيسقلبونهم [يخصونهم] ويخرجونهم الي جميع الاقطار ويبيعونهم ... الي بلاد اليمن والهند والمغرب"^(٦). وأشار الادريسي^(٧) - ومن نقل عنه^(٨) - الي وجود ظاهرة الخطف

(١) الزهري: مصدر سابق، ص ١٢٥.

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ١٥٢.

(٣) ابن حوقل: مصدر سابق، ص ص ٦٢، ٦٣.

(٤) ابو العلاء المعري: اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، تحقيق محمد سعيد المولوي،

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ص ١٤٨١.

(٥) مؤلف مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٦ بعثة

المعهد الاولي إلى المغرب، ورقة ٣٥، مجهول: حدود العالم، ص ١٤٨، ناصر خسرو: مصدر

سابق، ص ١١٨، بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص ٣٤٦، الإدريسي: مصدر سابق، ج ١،

ص ٤٦، الحميري: مصدر سابق، ص ١٨٠.

(٦) مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٦ بعثة المعهد

الاولي إلى المغرب، ورقة ٣٥

(٧) م.س، ج ١، ص ٤٦.

(٨) الحميري: مصدر سابق، ص ١٨٠ والذي استبدل جوة بجور.

بقريّة جوة الحبشية والتي ذاع صيت أهلها بأنهم " يسرق بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم من التجار فيخرجونهم الى البر والبحر". واستحثت هذه العمليات همم الفقهاء والمفتين فأصدروا عددا من الفتاوى التي تحرم امتلاك الأحباش حتى تقام عليهم البيئة بأنهم عبيد وليسوا أحرارا مختطفين، في لمحاولة للحد من الظاهرة والتصدي لها^(١). كما أوجب الفقهاء عند بيع الحبشي أن تشتمل وثيقة بيعه أنه "في يد البائع وملكه وتصرفه المقر له بالرق والعبودية المدعو فلان الحبشي الجنس المسلم ومن حليته كذا وكذا"^(٢).

فضلا عن التجارة والخطف تشير المصادر إلى الجريمة والهذية كأحد روافد استرقاق الاحباش وجلبهم، حيث تشير المصادر ان ملوك بلاد الزنج والحبشة كانوا يسترقون من شاءوا من رعيتهم "بجرم وبغير جرم"^(٣). كما جرت عادة حكام الحبشة واليمن ومصر إرسال الهدايا الى نظرائهم من الامراء والسلاطين وكان منها الرقيق الاحباش^(٤). ولكثرة عدد الأجباش بمصر فقد اعتاد حكامها إرسال الأجباش ضمن هداياهم^(٥).

(١) ابن ابي زيد القيرواني: النوادر والزيادات علي ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق محمد عبد العزيز الدباغ، ط. دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٩، ج٣، ص٦٩، ج٩، ص٣٩٧، ١٨٩، الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والاندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ج٩، ص٢٣٩.

(٢) القرافي: الذخيرة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ج١٠، ص٣٥٥.

(٣) المقرزي: المواعظ، ج١، ص١٩٣.

(٤) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٢٤، ابن المجاور: مصدر سابق، ٣٧٨هـ وفيها اهدي من مصر "خمسون حبشيا وثلاث زرافات". البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان، ص٢٦٩، ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص٢٠٠، السخاوي: التبر المسبوك في ذيل الملوك، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، ١٣١٥هـ، ص٦٧، ابو القاسم الزياتي: البستان الظريف في دولة اولاد

حضور الأحباش ودورهم ببلاد المغرب.

كان للأحباش حضور بالمغرب قبل العصر الإسلامي، فقد امتدت علاقات تجارية للقرطاجيين مع الشرق الإفريقي بغية الاتجار فيهم؛ مما أسفر عنه تدفقهم بشكل ملحوظ لتمتلا بهم أسواق النخاسة، وتم استخدامهم في أغراض اقتصادية على نحو عام ومهام منزلية على نحو خاص^(٢)، كما تذكر المصادر القديمة أن الأحباش - والذين نعتوا فيها باسم الإثيوبيين - قد تم إدراجهم ضمن الحرس الخاص للقادة الرومان لشمال افريقية وحسب شهادة سترابون تم شحن الآلاف منهم إلى أسواق حوض البحر المتوسط بما في ذلك الشمال الإفريقي خلال الحكم الروماني^(٣).

ترد بالمصادر إشارات دالة على حضور للأحباش ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط ممن عرفوا بـ "حبشة المغرب"^(٤). فأول هذه الإشارات تأتي في سياق الحديث عن حملة موسى بن نصير على بلاد المغرب؛ حيث دخل "مدينة سجلماسة

مولاي الشريف، تحقيق راشد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، المغرب، ١٩٩٢، ق ١، ص ٤٤٣، السلاوي: مصدر سابق، ج ٣، ص ١٢٩.

الأصفهاني: لبستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ٢٦٩.

(2) Anene (Y.C): "Slavery and Slave trade", in Africa in the nineteenth and twentieth centuries, press, p . 96.

(٣) فيجي.ج.دي: تاريخ غرب افريقية، ترجمة السيد يوسف نصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ص ٤٣، Bechey (RW): The Slave Trade of Eastern Africa, London, 1976,p3.

(٤) ابن خلدون: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٤.

ووجد بها قوماً من الأحباش" ^(١)، مما يدعم القول السابق بدخول الأحباش إلى المغرب الأقصى عبر السودان الغربي. وفي ترجمته لاسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله ذكر أبو العرب تميم ^(٢) أنه "صاحب سوق مسجد الأحباش"، فهل يمكن التكهّن بازدياد أعدادهم بأفريقية حتى كان لهم مسجد عرف بهم؟ لا سيما وأن صاحب السوق كان مشهوراً بالتجارة في شتى أنواع الرقيق ^(٣). وانطلاقاً من هذا التساؤل نضع تلك الإشارة التي تخص أحد أسوار مدينة قسنطينة الذي نسب أيضاً للأحباش وعرف بـ "سور الحبشية" ^(٤). وفي دولة بني زيان تشير المصادر إلى أن السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق استعمل على الجباية في سجلماسة "أبا طالب الحبشي" ^(٥).

تكشف المصادر عن أعلام مغاربة ذوي أصول حبشية، فقد قيل أن "راشد بن مرشد" مولى الإمام إدريس الأول انحدر من أب حبشي ^(٦). وأن الشاعر التونسي حسين التميمي (٤١٠هـ / ١٠١٩م) يعود بنسبه إلى أصول حبشية؛ حيث هجاه أحد شعراء القيروان قائلاً:

^(١) أبو حيان النحوي: كتاب في انساب المغرب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٥ بعثة المغرب الأولى إلى الرباط، ورقة ٣.

^(٢) طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ٢٠.

^(٣) أبو العرب تميم: مصدر سابق، ص ٢٠.

^(٤) محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزاوي ومحمد ج محفوظ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ج ١، ص ٥٩٢.

^(٥) ابن خلدون: مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٤٨.

^(٦) مجهول: نسب بعض الصحابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونه والموحدين، مخطوط بعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٢٥٥١ تاريخ، ورقة ١٩، ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ج ١، ص ١٨، هامش ١٥.

أغراب أنت ما بين الرخم أم عتود أنت ما بين الغنم
حبشى اسود ذو هيئة سارق الألفاظ من كل الأمم

وامتداداً لهذا السياق نشير إلى بعض المغاربة الذين حملوا ألقاباً أو أسماء تنم عن انتماء إلى الحبشة، مثل الصوفي الشهير أبي يعزى يلنور الذي أكدت بعض المصادر أنه يعود إلى أصول حبشية فعرف بـ "العبد الحبشى" ^(١)، ولما أشاد به الشيخ عبد القادر الجليلي قال عنه "عبد حبشي بالمغرب اسمه آل النور، وكنيته أبو يعزى، له مقام عظيم قل من يبلغه من الأوائل والأواخر" ^(٢). والشيخ "بلال بن عبد الله الحبشي" خادم الشيخ أبي مدين والذي كساه خرقة التصوف، فخدمه نحواً من ١٥ عاماً حتى توفي ^(٣). والصوفي "مسلم الحبشي" الذي كان مشهوراً بالعبادة والبكاء ^(٤). والشيخ "أبو سعيد الحبشي" أو "أبو سعيد الأسود"، وكان صاحب زهد وكرامات، مقيماً بأحد الأربطة بمدينة فاس، ثم انتقل منها إلى الشيخ أبي يعزى وتولى مهمة جمع الخطب لطبخ طعامه وطعام ضيوفه ^(٥).

نظراً لما تمتعوا به من شجاعة وقوة بدنية فقد تسرب الأحباش إلى المؤسسة العسكرية. وتأتي هنا المعلومة الأهم، والتي تتعلق باستكثار الأمير الأغلبي ابراهيم الثاني من العنصر الأسود بشكل عام ومن بينهم الأحباش؛ ليستبدل بهم قوة عسكرية أخرى ثارت ضده عندما رفضوا طلبه بمغادرة القصر القديم لأنهم نشأوا

(١) مجهول: المعزى في مناقب ابي يعزى، مخطوط بعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٢٠٤١ تاريخ، ورقة ١٠٣، ابن أبيك الداوداري: مصدر سابق، ص ٢٦٧.

(٢) التادلي: المعزي، ص ٢٩٢.

(٣) المقرئ: مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٤٢.

(٤) التميمي: مصدر سابق، ص ١٦١.

(٥) التميمي: مصدر سابق، ص ١٦٨.

هناك، وكانت أعداهم غفيرة حتى قيل أنهم بلغوا "مائة ألف عبد"؛ ورغم طابع المبالغة الذي يحيط بهذا الرقم فإنه لا يخلو من دلالة عن كثرتهم الكاثرة حتى أن الأمير استفرغ في سبيل شرائهم بيت المال، واضطر إلى تحويل مصاغ نسائه عملة لاتمام عملية الشراء، وأسكنهم ثكنات خاصة في رقادة وأمر بكسائهم وتدريبهم على حمل السلاح^(١). ويبدو أن هذه الجموع السودانية الغفيرة ضمت أعداداً من الأحباش، ولا أدل على ذلك من أن الأمير اختار منهم عبداً يدعى "ميمون الحبشي" -بلغت مهارته العسكرية درجة كبيرة- وعينه قائداً للجيش، وعهد إليه بالقضاء على الثورات العنيفة التي اندلعت ضده بأفريقية، وتسهب المصادر في جهود ذلك الحبشي العسكرية، ففي عام ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م انتدب الأمير قائده الحبشي ميمون الخادم للقضاء على ثورة أهل قمودة وباجة وصطفورة والاريس "فقاتلهم حتى انهزموا"^(٢)، وفي عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م تمكن من إخماد ثورة مدينة تونس التي أفلقت مخاوف الأمير الأغلبى مرارا فعاد ميمون إلى بلاد القيروان مظفراً^(٣)، ومعه الأسرى الذين تم استعراضهم بشوارع القيروان فبلغوا "ألف ومائتي أسير وهم اكابر القوم ورؤساهم"^(٤)، فخلع عليه الأمير عند عودته إلى القيروان أجمل الحلل من "الخز والوشى والديباج وطوقه بالذهب"^(٥). كما تشير

(١) ابن عذاري: مصدر سابق، ج ١، ص ١١٩، ١٢٣ النويري: مصدر سابق، ج ٢٤، ص ١٢٩.

(٢) ابن عذاري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٣، ١٢٩، النويري: مصدر سابق، ج ٢٤، ص ١٣٣.

(٣) ابن عذاري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٩.

(٤) النويري: م.س، نفس الجزء والصفحة.

(٥) ابن عذاري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٩.

المصادر إلى قائد آخر عسكري آخر يدعى "ابراهيم بن حبشي" تولى قيادة الجيش الأغلبى حاول التصدي لأبي عبدالله الشيعي^(١).

لا أدل على تجنيد الأحباش في المؤسسة العسكرية من أنه بعدما اسقط الفاطميون دولة الأغالبة، انضم هؤلاء الأحباش إلى جيش المهدي الفاطمي^(٢)، الذي لم يكتف بأعدادهم بل راح يستكثر منهم حتى أنه جند في جيشه "من العبيد اثني عشر ألف مملوك بين رومى وحبشى"^(٣). ولم يتردد الفاطميون من بعده - وإدراكا منهم لدور الأحباش العسكرية - في إبرام اتفاقيات تجارية مع حكام الحبشة والنوبة للحصول على دفعات جديدة من الرقيق^(٤).

نلمح حضورا للأحباش في المؤسسة العسكرية من خلال مطالعة بعض المصنفات الأدبية، فقد وصف الشاعر القيروانى محمد بن عبدون الوراق (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) ما حل بسوسة من دمار خلال بعض المdahمات العسكرية التى تعرضت لها المدينة من قبل بعض القوى السياسية لمغرب القرن الرابع الهجرى فكان مما ورد على لسانه:

فأين تلك الخدور أين بدور حجبته الحبوش والاعلاج^(٥)

مما يفصح عن انخراط واضح للأحباش ضمن مؤسسات البلاد العسكرية. ولعل ما يؤكد ارتباط الاحباش بالعسكرية وحضورهم كمحاربين قول الشاعر ابن زقاق البلنسي^(١) يمدح احدهم:

(١) ابن عذاري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) ابن عذاري: مصدر سابق، ج ١، ص ١٥٠.

(٣) ابن الخطيب: المغرب، ص ٥١.

(٤) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٥) ابن رشيق: الانموذج، ص ٣٩٤.

بروق الليل في اشراقه كسيوف بأكف الحبشي.

تؤكد كتب الادب عن حضور للأحباش بالمغرب ودراية بمواصفاتهم
الجسمانية، ففي إطار ما اشتهر به شعراء العصر من التغنى بالغللمان واختصاصهم
بالغزل^(٢)، أنشد ابن رشيق القيرواني شعراً في وصف غلام حبشي كلف به قائلاً
عنه:

أعجب ما فيه أن رويته تكحل زريق العيون بالدعج
فديته من مهفهف غنج كأنه مروود من السبج^(٣)

ووصف الشاعر الأندلسي "ابراهيم بن خفاجة" فاكهة التين بقوله:
كأني اقطف منها ضحى ثدي صغار بنات الحبش^(٤).

ووصف الوزير والشاعر أبو جعفر الوقشي (ت ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م) - أثناء
مجلسه بالمغرب مع بعض ندمائه - عبداً حبشياً وهو يصعد شجرة لوز فأتى منها
بغصن:

وزنجي ألم بغصن نور وقد زفت لنا بنت الكروم
فقال فتى من الندماء صفه فقلت الليل أقبل بالنجوم^(١)

(١) ديوانه، تحقيق عفيفة محمود ديرياني، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص ١٩٥،
الاصفهانى: خريدة القصر، ص ١٨٤.

(٢) عن التغزل بالغللمان الأحباش انظر: ابن الشعار: مصدر سابق، ج ٨، ص ١٩٢.

(٣) النواجى: مراتع الغزلان في وصف الغلمان، مخطوط بعهد المخطوطات العربية تحت رقم
٧٥٦ تاريخ، ورقة ١٤.

(٤) النويري: مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٠٢.

ولأن الأحباش فيهم "جلد على الكد"^(٢)، ويصلحون "للأعمال الشاقة من الحرث والكراب وغير ذلك"^(٣)، تم تسخيرهم للعمل في بعض المناجم، فحسب رواية فريدة لابي حيان^(٤) دخل موسى بن نصير مدينة سجلماسة "ووجد بها قوماً من الأحباش ... كانوا يعملون باستخراج النحاس والذهب" وهو مجال عمل فيه الرقيق الأسود في جهات أخرى مثل السوس الأقصى حيث كان "العبيد والخدم يستخرجون التبر"^(٥)، ومدينة تكدا التي تولى فيها العبيد سبك النحاس^(٦).

كما ترد إشارات تفيد بتسخير أحباش في خدمة القوافل التجارية، فقد هلكت قافلة تجارية كانت في طريقها إلى جبل نفوسة ولم ينج منهم سوى "عبد حبشى فاخبرهم فحكموا بموتهم"^(٧). وترد رواية أخرى تخص احد تجار القيروان خرج في قافلة تجارية له شطر مصر "ومعه عبد حبشى"^(٨).

لا تقل كتب الوثائق اهمية في الكشف عن الأحباش داخل المجتمع المغربي، فحسب ما ورد في بعض الوثائق الفاسية اشهد فيها احدهم انه اعتق مملوكه

(١) ابن الأبار: الحلة السراء، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٢) ابن بطران: رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، سلسلة نوادر المخطوطات، مطبق لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٣٧٤.

(٣) مجهول: التحقيق في شراء الرقيق، ورقة ٤٧.

(٤) كتاب في انساب المغرب، ورقة ٩.

(٥) مجهول: كتاب في الجغرافيا، ورقة ١٠٢.

(٦) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٧٨، بنمليح: مرجع سابق، ص ٣٢٤.

(٧) الوسياني: سير أبي الربيع الوسياني، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٩١١٣ ح، ميكروفيلم ٣٢٧١، ورقة ٢١.

(٨) التمكنى: منهاج أولى اليقين ببيان حال المتقين، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٦٠ تصوف تيمور عربى ميكروفيلم ٢٦٢٦٤، ورقة ٢٥.

"الحبشي الأصل عتقا صحيحا"^(١). كما ترد ثلاث وثائق تخص بيع نفر من الأحباش داخل مدينة فاس^(٢). وحسب وثائق الجنيزة بيع طفل حبشي يدعى "مقبول" دون أمه رغم انه لم يتعد السادسة من عمره، بيد أن القدر جمع شملهما بعد سنوات حين بيع إلى سيد أمه فجمعا في منزل واحد^(٣).

وفضلاً عما تقدم، تعبر قرائن أخرى عن حضور الأحباش داخل المجتمع المغربي ونقصد بذلك معرفة اللغة الحبشية في صفوف بعض فئات المغاربة، فضلاً عن إجادة بعض العلماء للغات عدة منها "التركية والحبشية والرومية والزنجية"^(٤)، تناول بعض الفقهاء تفسيرات لمفردات حبشية تداولها الناس في المجتمع المغربي^(٥). وذكر أبو زكريا^(٦) أن الشيخ الأباضي أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني اعتذر للأمير الرستمي عبد الوهاب بن رستم عن توليه عاملاً على جبل نفوسة بحجة أنه ضعيف فأرسل إليه الأمير رسالة أقسم فيها "بالله بالعربية وبربك بالحضرية و"امر" بالبربرية و"آن" بالحبشية، لا أقلد المسلمين إلا رجلاً يقول أنا ضعيف"، مما يفصح عن تداول هذه اللغة في مدينة تاهرت ربما لانتشار الأحباش بها نتيجة العلاقات التجارية التي ربطت الرستميين بشرق إفريقيا وبلاد السودان

(١) ابن سلمون الكناي: الوثائق الفاسيات، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٢٧، فقه مالك، مصورات الازهر، رواق المغاربة، ورقة ٢١.

(٢) ابن سلمون: مصدر سابق، ورقات ٢٠، ٢١، ٢٥.

(٣) Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records", Arabica, t.9, Fas.1, Leiden, 1962, p.10

(٤) ابن الشعار: قلائد الجمان، ج ٥، ص ٢٦.

(٥) ابن رشد: البيان والتحصيل، ج ٣، ص ٣٠٢، ج ١٧، ص ١٣١، ج ١٨، ص ٢٣٦، ٥٥١.

(٦) مصدر سابق، ص ١٢٥.

الغربي التي تسرب عبرها بعض الأحباش إلى الحاضرة الرستمية^(١). وهو ما تدعمه رواية ابن الصغير^(٢) التي تترجم لأحد تجار العبور إلى بلاد السودان يدعى "محمد بن عرفة" والذي وفد في إحدى رحلاته على أحد ملوك السودان الذي راعه جمال التاجر المغربي ووسامته وقال له " كلمة بالسودانية ليست تعبر بالعربية لان لا مخرج للامساك إنما هو فيما بين القاف والكاف والجيم، إلا أن معناها " أنت حسن الوجه"..."، لا يخفى حتماً ما تحمله الرواية من مغزى يكشف عن دراية تامة للغة السودانية وقواعدها ومخارجها من قبل المؤرخ الرستمى وهو ما ينسحب ربما على غيره من أهل القلم نتيجة احتكاكهم المباشر بالعناصر السودانية - ومنها الأحباش - التي عرفتھا البلاد خلال تلك الفترة، ولعل في تخصيص أحدهم مؤلفاً حمل عنوان "نور الغبش في لسان الحبش"^(٣) ما يؤكد على ذلك.

من خلال نازله عُرضت على الونشريسي^(٤) يمكن القول بأن حضور الأحباش ببلاد المغرب لم يتوقف طيلة العصر الوسيط، حيث سئل عن "العبيد القادمة من أرض الحبشة يعترفون بالتوحيد وبفروع الشريعة هل يجوز بيعهم وأبتياعهم أم لا؟" فأفتى بالجواز استناداً أن الأصل في بلاد الأحباش هو الكفر وإن الشك في تقدم اسلامهم عن تملكهم أمر مشكوك فيه وعليه فإن "العبيد القادمين من أرض الحبشة.. لا يمنع اعترافهم بذلك الاقدام بيعهمخ وابتياعهم اعتماداً على أصالة الكفر".

(١) Marcy (G): " le dieu des Abadites et des Barghwta " Hesperis ,t. 22 , 1936 , p. 33.

(٢) أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦، ص ٧١.

(٣) نسب السيوطي هذا الكتاب الى أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ/ ١٢٤٤م) انظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، ١٩٦٤، ج ١، ص ٢٨٣.

(٤) مصدر سابق، ج ٩، ص ٢٣٩.

تشير المصادر إلى بعض العادات الخاصة بالأحباش، مثل التفلفل بالمسك والعنبر^(١)، وأكل لحوم الأسماك نية^(٢). ويبدو أنه كان للأحباش زي يميزهم حيث أن العبد الذي تمكن من قتل صاحب الزنج قد تنكر له في "زي حبشي"^(٣). ويمكن الاستئناس هنا بإشارات تفيد بأن عنصر السودان ببلاد المغرب اعتادوا لبس الجلود المدبوغة من جلد الهامز والنمور^(٤)، ويبدو أن تلك التي عناها ابن الخطيب^(٥) حين تحدث عن ألبة السودان في بلاد المغرب الأقصى ونعتها بالأردية الافريقية، والزياني^(٦) حين أشار إلى "كسوة السودان". وجرت عادة الناس لحماية الطفل من العين والحسد أن يأخذوا بول سبعة أنفس "أحدهم حبشي وصبوه عليه".^(٧)

(١) القفطي: مصدر سابق، ص ٢٣١.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ج ٧، ص ١٤٨.

(٣) الداوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٥، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، مطبعة الحلبي، ١٩٩٢، ص ٢٦٧.

(٤) السيراقي: الرحلة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩، ص ٨٨، أبو حامد الغرناطي: تحفة الالباب ونخبة الاعجاب، تحقيق اسماعيل العربي، دار الافاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣، ص ٤٠، ابن سعيد: بسط الارض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، معهد مولاي حسن، تطوان، ١٩٥٨، ص ٢٤، ابن بشكوال: غوامض الاسماء المبهمة الواقعة في متون الاحاديث المسندة، تحقيق عز الدين السيد ومحمد كمال، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج ٢، ص ٦٢٦، النويري: مصدر سابق، ج ١٥، ص ٢٢٨.

(٥) اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة احياء التراث، دار الافاق، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٨.

(٦) مصدر سابق، ص ٤٤٣.

(٧) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ج ٩، ص ٥٤.

صفوة القول، إن الأحباش كان لهم حضور ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، إلا أنه ظل حضوراً باهتاً إذا ما قورن على الأقل برقيق السودان الغربى، ويبدو أن البعد الجغرافى لبلاد الحبشة عن المغرب قد أسهم فعليا فى هذا الأمر. وقد تسرب هؤلاء الأحباش إلى بلاد المغرب عبر حركة التجارة وعن طريق الهدية فضلاً عن خطف الأحرار منهم وبيعهم رقيقاً فى أسواق النخاسة. وقد تجلّى حضور الأحباش بشكل كبير فى المؤسسة العسكرية نظراً لما تمتعوا به من قوة بدنية وجلد، كما تم تسخيرهم فى بعض الأعمال المهنية الشاقة كالتعدين ومصاحبة قوافل التجارة فى مسالك الصحراء.